من لغو الصيف :

إلى الأســـكندرية...

للأستاذ ســـيد قطب

إلى الاسكندرية ...

لا بد من تغيير الهواء فى هذا العام ... فها هى ذى أعصابى تعلن الثورة ، وتعلنها وتعلنها ، ثم تمل من هذا الإعلان فتضرب إضرابا تاما وتنام ! ... وهاهوذا الطبيب والطبيب والطبيب ، لا يجدون فى جعبتهم — بعد أن أتناول نصف ما فى صيدلية حلوان من الأدوية حقنا وتجرعا وبلعا — إلا أن يقولوا : غير الهواء !

لا بد من تغيير الهواء فى هذا العام ... فقد انقضت سبع سنوات عجاف ولم أغادر فيها حلوان شتاء ولا صيفا إلا أياما فى الصعيد — فى مطلع الصيف — « للتفتيش » ! التفتيش لحساب وزارة المعارف (ولا أدرى متى تغير هذا العنوان ، ومتى تغير — تبعا لهذا - وظيفته فتجعلها مثلا « التوجيه » اسما ومعنى).

لم يكن تفتيشا فى الواقع . لقد كان نفيا !

كانت الحرب ، وكانت الأحكام العرفية ، وقال الوزير : لابد أن يفصل هذا الموظف أو ينفى من الأرض أو يشرد فيها . فقد أبلغتنى إدارة الأمن العام عنه أشياء !

إدارة الأمن العام ؟ أى إدارة الأمن العام ! ... وأبلغتنى أنه يعمل لحساب المعارضة ... ثم إن « دوسيهه » ليس نظيفا . فيه إنذاران على كتابته فى الصحف مقالات سياسية وهو موظف !

موظف . أى عبد . لا رأى له فى قضية بلده ، ولو لم يكن لهذا الرأى صفة الحزبية !

وأبلغت أننى منفى من الأرض . وقررت أن أستقيل ! وأباها الرجل الأريحى الدكتور طه حسين . وقال : لن تصنعها وأنا هنا فى الوزارة !

قلت : ولكننى لن أخضع لأهواء الوزراء . واجهونى بما يقال عنى ، ثم اصنعوا ما تشاءون . وسأصنع كذلك ما أشاء !

قال : وإذا استقلت فماذا تصنع وأنا أعرف أعباءك الثقال ؟

قلت : أصنع ما يتهيأ لى ، فلست من عجزة الدواوين !

قال : لن تستطيع أن تصنع شيئا فى هذه الأيام . فالأحكام العرفية تملك أن تنقلك إلى أى مكان ، وأن تلزمك الإقامة فى هذا المكان ، حتى لو استقلت من الحكومة ! فخير لك أن تقيم فيه موظفا ، ولا تقيم فيه منفيا !

قلت : معذرة يا سيدى الدكتور ؛ فإنى أفضل أن أقيم هناك منفيا ! ثم ... ثم ... إننى سأكون بطلا فى عهد الوزارة القادمة !

(ولم لا ؟ ألم تتدهور البطولة عندنا حتى صارت تكتسب بالنقل إلى جهة نائية فى عهد من العهود ، أو بالتخلف عن درجة استثنائية كالزملاء !) .

وقال الرجل :

— أتنفى لى أنك أتيت ما نسب إليك ؟

— قلت : وهل أدرى ما ينسب إلى ؟

— قال : أشياء ، جلست فى بار اللواء ، وقلتها لبعض الجالسين والأصدقاء عن بعض الوزراء ! ومعارضات سرية للعهد الحاضر تنفيذا لخطة حزبية معينة .

— قلت : لقد اعتدت أن أنشر آرائى ، وأن أوقعها بإمضائى . فليس من عادتى أن أثرثر فى المجالس بشىء ! أو أن أعمل فى الخفاء ! .

— قال : وأنت عندى مصدق . فدع لى الأمر . وسأحدث أزمة من أجلك لو اقتضى الحال ! .

ووفق الرجل بين أريحيته الكريمة وتشدد الوزير . فكلفنى أن أقوم بمهمة تفتيشية فى الصعيد لمدة شهرين اثنين ، أختار فيها من الجهات والمدارس ما أشاء ، وأكتب له تقريراً شاملا عن دراسة اللغة العربية فى المدارس على اختلافها ، وأفصل اقتراحاتى فى إصلاح هذه الدراسة بصفة عامة !

ووجدت فى ذات المهمة ما يغرى ، وفى أريحية الرجل ما يخجل ... فنفذت التكليف .

نفذته متناسيا — بل ناسيا — تلك المهزلة ، مهزلة الاتهام . لقد أخطأ الوزير . أخطأ . فلم أعد أجد فى حزب من هذه الأحزاب ما يستحق عناء الحماسة له والعمل من أجله . كلهم سواء

أولئك الرجال.! رجال الجيـل الماضى . للجميع عقلية واحدة لا تصلح لهذا الجيل -- عقلية أنصاف الحلول - كلهم نشأوا وفى قرارة نفوسهم أن انجلترا دولة لا تقهر ؛ وأن الفقر مرض مستوطن ... وكلهم يؤمن — إن كانت قد بقيت لأحد منهم طاقة الإيمان بشىء — أن الله خلق الدنيا فى ستة أيام !

هؤلاء جميعا لم يعودوا يصلحون لقيادة الجيل . أعصاب منهوكة . وقلوب خاوية من الإيمان الحار بشعبهم وأمتهم . كلهم يستحقون « الماش » ، كلهم سواء ، لا يستحقون من الجيل الجديد الحماس !

* * *

إلى الاسكندرية ...

فقد انقضت سبع سنوات عجاف لم أغادر فيها حلوان شتاء ولا صيفا ، إلا لهذا « التفتيش » ! ولم أبصر فيها وجه البحر يسفر ، ولم أستمع فيها إلى صوته يجيش ... وكيف ؟ ولم أكن « غنى حرب ! » بل موظفا وصاحب قلم ؟ ! موظفا فى وزارة المعارف . لا فى وزارة التموين ، ولا فى وزارة التجارة ، ولا حتى فى الأشغال أو المواصلات ! . وصاحب قلم للأدب أو السياسة القومية ؛ لا للدعاية الانجليزية والأمريكية ولا للسياسة الحزبية فأنى لى بوجه البحر فى تلك السنوات العجاف ؟ !

وهبنى كنت أجد المال الذى أجارى به أغنياء الحرب ومأجورى الدعاية أو الحزبية ، فما يحملنى على أن أكون من أهداف طيارات المحور ، ولست ضابطا ولا جنديا فى الجيش المصرى الذى احتمل ضحاياه فى أثناء الحرب ، دون أن يفوز بشرف الحرب !

لقد كان موقف الساسة المصريين حرجا حقا !

فهم لا يعلنون الحرب على المحور — ولهم العذر — فلم يعلنونها ؟ ليقاوموا احتلالا متوقعا ، وهم فى احتلال واقع ؟ ! لينصروا الديمقراطية ، والديمقراطية تفعل بهم الأفاعيل ؟ ... أم لا يعلنون الحرب ، ومصر تحتمل ويلاتها بلا مقابل ، وتهدد فى النهاية بأنها إذا لم تعلن الحرب فستحرم من مؤتمر الصلح . (ثم تعلنها وتحرم من مؤتمر الصلح أيضا !) ..

لم لا تعلن الحرب ، ولا تساهم فيها ؟ ... هناك معاهدة الشرف والاستقلال ، وهناك الشيخوخة الروحية ، وهى أشد « شرفاً » من معاهدة الشرف والاستقلال ! ! !

إنهم رجال الجيل الماضى! أولئك الذين لا يعرفون متى يحسن اللاعب أن ينسحب من الميدان !

* * *

إلى الاسكندرية ...

فقد انقضت سبع سنوات عجاف لم أغادر فيها حلوان شتاء ولا صيفاً إلا لذلك « التفتيش » السياسى العجيب !

ولكن ما هذا ؟

أهذه محطة القاهرة ؟ أم ذلك يوم الحشر الأكبر ؟ ما بال الناس هكذا يتدافعون بالمناكب ، ولا يعرف حميم حميا ؟ أهذا قطار ؟ أم حمام الثلاثاء ! وإن كنت لا أعرف حمام الثلاثاء . ولعل الدكتور زكى مبارك يعرفه فله قصيدة عن ليلة الثلاثاء . لا بد أنها كتبت هناك !

فلنزاحم ، على شدة ما أكره الزحام !

الحمد لله ! لقد وجدت مكانا ... مكانا للحقيبة فى « طرقة » العربة . فى الممر ... وهل ذلك شىء هين ؟ إن السعيد من يجد لحقيبته مكانا فى هذا الممر . إنه بعد أن يهدأ القطار ويروق ، وينزل المودعون الذين يكظون الفراغ كظاً ، يستطيع أن يتخذ من حقيبته مقعداً ، بينما الآخرون يقفون طول الطريق خفافا أو ثقالا يحملون بعض متاعهم ، ما لم يريحوه على أقدام المسافرين ! ! !

وجلست بعد فترة ووقف الآخرون . وسار القطار ... وفى الزحام الشديد وقعت عيناى على سيدة شابة جميلة واقفة تحمل شيئاً ، شيئاً أثمن من كل ما يحمل المسافرون ... تحمل جنيناً !

وبمقدار ما يثير فى نفسى منظر الشابة الحامل من الأسى ، يثير فى نفسى كذلك الاحترام والإشفاق .

فأما الأسى ، فعلى ذلك الجمال الضائع . كلما تخيلت هذه الشابة فى رشاقتها الفاتنة ، ثم فى هذه الكظة التى عيّر بها ابن الرومى — سامحه الله — إحدى المغنيات ! إنه أسى يكمد نفسى ويؤذيها بقدر ما ترتفع فى هذه الشابة درجة الجمال !

وأما الاحترام والإشفاق فلهذه التضحية النبيلة التى تبذلها

الفتاة للحياة — أرادت أم لم ترد . وشعرت أم لم تشعر — التضحية بالجمال — أعز شيء في هـذه الحياة — وبالراحة ، وبالذاتية كلها في النهاية التضحية إلى حد الفناء !

أقول وقعت عيناي على هـذه السيدة الشابة الجميلة تحمل كنزها وكنز الحياة في حرص وإشفاق . وتحركت في نفسي كل هذه المعاني ، فوقفت متنازلا عن مقعدي الخاص — على ما برجلي من ألم وما بأعصابي من تعب — لهذه السيدة المضحية ... فجلست شاكرة ..

ولمحت همس في أذني أحد المراقبين: خسارة ! إنها لا تستحق، إنها من بنات صهيون !

وتفرست في ملامحها فرجحت رأي الزميل — الزميل في الوقوف — وكدت أنا الآخر أندم على ما صنعت لولا نظرة إلى الحمل الثمين !

قلت :

ليت الصهيونيين يعلمون ماذا يفعلون ! إنهم بموقفهم الإجرامي في قضية فلسطين يكادون يجردون نفوسنا حتى من العطف الإنساني ، والروح الآدمي على أبناء صهيون ، وبناته الملاعين !

ماذا يكسب أولئك الصهيونيون من عداء العرب ؟ العرب الذين عطفوا عليهم وآووهم .. على مدى التاريخ — والعالم كله يسومهم سوء النكال ؟ !

ماذا يكسب أولئك الصهيونيون من خطتهم الحمقاء التي تثير عليهم سبعين مليونا من العرب ، ومائة مليون على الأقل من المسلمين الآخرين في مشارق الأرض ومغاربها ، دون أن تكسبهم صداقة حقيقية من أحد في هذا الكوكب الأرضي — ولا في كواكب السماء — ! فهـذه أمريكا التي تشترى أصواتهم الانتخابية ونفوذهم المالي بتصريحات جوفاء ، لا ترضى بأن تبيح لهم الهجرة إلى بلادها الواسعة الغنية ، بدل هذه التصريحات الجوفاء . وهذه انجلترا التي تحميهم بالمدافع والدبابات لا تشارك في تخفيف محنتهم بأبوابها في مستعمراتها الواسعة !

لقد كان لهم من صدور العرب الكرام حصن رفيق رحيم في عهود التشريد المديدة ، ففقدوا بحماقتهم في النهاية هـذا الحصن الرفيق الرحيم !

هذا كل ما جنوه من سياستهم الأثيمة الحمقاء .

***

إلى الاسكندرية ...

وها هي ذي مشارفها تبدو . الركاب يتحركون . يتحركون — ولا مؤاخذة — حركة بغلة الشاعر القاهري الظريف — البها زهير — أو بغلة صديقه على الأصح :

لك يا صديقي بغـــلة ليست تساوي خردلة
تمشي فتحسبها العيو ن على الطريق مشكلة
تهتز وهي مكانها فكأنما هي زلزلة
وتخال مدبرة إذا ما أقبلت مستعجلة
مقدار خطوتها الطويـــلة . حين تسرع : أنملة
أشبهتها بل أشبهـــتك كأن بينكما صلة !

***

إلى الاسكندرية ...

فقد أوصيت زميلا كصديق البها زهير ! أن يختار لي منزلا هادئاً فاختاره — حفظه الله — على هواه .

أما قصة ذلك المنزل ... فإلى حديث آخر من « لغو الصيف » الذي اخترته في هـذا الأوان بعداً بنفسي وبالقراء عن معارك النقد الحامية ، وعن مضايقة عباد الله المؤلفين ، وكفى الله المؤمنين القتال ! ! !

سير قطب

« مطبعة الرسالة » تقدم قريباً:

الطبعة الثانية من كتاب

في أصـــول الأدب

للأستاذ

احمد حسن الزيات

وقد زيدت عليه فصول لم تنشر